

وبعد فقد نبغ في علماء العرب بفن الجغرافيا أناس لم يزالوا يذكرون كما يذكر الأفراد فمن قدمائهم أبو موسى الخوارزمي وعبد الله بن خردادبة وابن واضح يعقوبي وابن الفقيه الهمداني وعمر بن رسته وقدامة بن جعفر والجيهازي وعلي بن فضالان وأبو دلف مشعر وأبو زيد البلخي وأبو إسحق الاصطخري وشمس الدين المقدسي وعلي بن الحسين السعودي وأبو الريحان البيروني وأبو عبيد البكري وأبو سعيد الأصبغي وأبو عبد الصيرافي والزمخشري ومحمد بن أحمد الهمداني ومحمد بن أبي بكر الزهري والشريف الإدريسي وابن فضل الله العمري ومحمد المازني ومحمد بن علي الموصلي وأبو عبد الله بن شداد وأبو محمد العبدوي وأبو عبد الله ياقوت الحموي وزكريا بن محمد القزويني وابن سعيد المغربي وشمس الدين الأنصاري الدمشقي والملك أبو الفداء صاحب حماة وابن بطوطة وابن الرودي وابن إياس وهذا كان آخرهم ممن يعدن بأقوالهم فقد جاء في القرن العاشر للهجرة وبعد ذلك انقطع سند العلوم الجغرافية من المسلمين بزهدهم في كل علم ولغلبة الجهل وإن صادف أن جاء من اشغل بالجغرافيا بعد ذلك العهد فيكون ناقلاً عن مصنفات أولئك الأعلام أو مختصراً لبعضها شأن العرب في القرون الثلاثة الأخيرة في جميع ما كتبوا فقد فقدت منهم ملكة التأليف والاختراع وصاروا نقلة عاديين والله أعلم.

ديوان خالد الكاتب

في جملة مخطوطات دار الكتب الظاهرية في دمشق ديوان خالد الكاتب ابن يزيد كتب سنة ١١١٠ هـ بقلم محي الدين الدمشقي السلطي وهو في ٨٨ ورقة تغلب عليه الصحة ومرتب على حروف الهجاء رتب لناظمه ولم يرتبه بنفسه فيما يظهر قال على قافية الباء:

يا أيها المعرض يا ذا الذي ... هب للهوى ديني بطول التعب
أما تراني دنفاً هانئاً ... وجداً بمن صارمني واحتجب
يا واحداً في الحسن طال الهوى ... والشوق إذ طال إليك الطلب
عدمت للعبد على أن لي ... قلباً قريحاً بك نافي الندب

وقال أيضاً:

القلب مني على شوق وتعذيب ... وزفرة فرحت في قلب مكروب
لا والذي ذهبت بالنفس لحظته ... وما بعري (؟) من حسن ومن طيب
ما طول شوقي ولا حزني ولا كمدي ... إلا على مهجتي من بعد تعذيبي
كم كمن الدهر من سهم يفوقه ... مسدد بدم العشاق مخضوب

وقال أيضاً:

ليست بأول ليلة ... طالت على دنف غريب
متأوه حب الخليل ... بزفرة الصب الكئيب
لم يلق بعد فراقه ... ثراً وغصناً في كئيب

وقال أيضاً:

فلو أن خدأ كان من فيض عبرة ... يرى معشياً لأخضر خدي فأعشبا
كان ربيع الزهر بين مدامعي ... بما اخضل فيه مزفتي وتعبا (؟)
على أنني لم أبك إلا مودعاً ... بقية نفس ودعتني لتذهب
وقد قل لما لم أجد لراحة ... سوى الدمع لما حل أهلاً ومرحبا
ومعظم الديوان في الغزل قال في قافية الدال:

السنة السقم حتى ملّ عاتده ... يا سالم القلب من شوق يكابده
ثم لا أرقن فإن المهم أقلقته ... فبات يسهد ليلاً أنت راقده

وباح بالسر لما ذاب أكثره ... شوقاً إليك ولما بان واحده
رثى العذول له حتى بكى معه ... حزناً وأسعده بالدمع حاسده

وقال أيضاً:

القلب يحسد عيني لذة النظر ... والعين تحسد قلبي لذة الفكر
يقول قلبي لعيني كلما نظرت ... كم تنظرين رماك الله بالسهر
العين تورثه هما فتشغله ... والقلب بالدمع ينهاده عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما ... فاحكم فديتك بين العين والبصر

وقال أيضاً:

ولما رأيت الدمع غاص إلى الحشا ... وأن فواذي من دموعي في بحر
نظرت إلى عيني لا ماءً فيهما ... فأيقنت أن الدمع تحتها يجري
فلولا استبان الدمع في مضمحل الحشا ... تفجر أنوار الدموع من الصدر
على أن قلبي ينشف الدمع حره ... وأين بقايا الدمع في وهج الجمر
قلنا أن معظم شعره في الغزل والنسيب وأكثره من أربعة أبيات ومن شعره في المديح
قوله يمدح الحسن بن وهب الكتاب:

يا وجه أحسن من يمشي على قدم ... بحرمة الحسن قل لي كيف حلّ دمي
أما وخدين يسقي الورد ماءهما ... في نسبة تمنع الدنيا من الظلم
ومقلة كلما دارت رأيت بها ... من جوهر اللحظ أسقاماً بلا ألم

إلى أن قال في المديح:

مذهب في الباب الملك أسرته ... أهل الكتابة والألباب والحلم
من بيت دهنقة الأشراف في شرف ... أوفى على مطلع العيوق في الشمم
في ذروة من بناء العز باذخة ... علياء طالعت عن الأوعال والعصم

أمضى البرية في خطب وأصوبها ... عزما وأكتب من أملى على قلم
قال جامع الديوان وهذا آخر ما وجد في ذيله عن نسخة أخرى ند قافية الباء قوله:

يا تارك الجسم بلا قلب ... إن كنت أهواك فما ذنبي
يا مفرداً بالحسن أفردتني ... منك بطول الشوق والحب
إن تك عيني أبصرت فتنة ... فهل على قلبي من عتب
حسيك الله لما بي كما ... أنك في فعلك بي حسي

وشعر خالد الكاتب كما تراه منجم هو إلى شعر المولدين أقرب منه إلى شعر العرب
الذي يحوي فخامة اللفظ وجزالة التركيب وقد استفدنا من ترجمة خالد الكاتب أنه
كان مغرمًا بالصباية وبينه وبين معاصره أبي تمام الطائي ملاحاة وشؤون وخلاصة حياته
كما في فوات الوفيات للكتبي أنه خالد بن يزيد أبو الهيثم الكاتب البغدادي أصله من
خراسان وكان أحد كتاب الجيش ولاء ابن الزيات الأعطاء ببعض الثغور فخرج
فسمع في طريقه منشدًا ينشد:

من كان ذا شجن بالشام يطلبه ... ففي سوى الشام أمسى الأهل والوطن
فبكى حتى سقط مغشياً عليه ثم أفاق واختلط عقله واتصل به ذلك إلى الوسواس
وبطل. قال ومن شعره:

عش فحيك سريعاً قاتلي ... والهوى إن لم تصلني واصلي
ظفر الشوق بقلبي دنف ... فيك والسقم بجسم ناحل
فهما ما بين وجد وضى ... تركاني كالقضيبي الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة ... فبكاني لبكاء العاذل

ومن شعره أيضاً:

عشة حياتي بورد كأنه ... حدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وراح ولعل الراح في حر كاته ... كفعل النسيم الرطب فيالغصن الغض
مصالح الأبدان والأنفس

قد يظن بعض من لا عهد لهم بحالة العرب أيام حضارتهم أنهم كانوا كعرب البادية اليوم لا يكادون يعرفون الأمور الصحية ولا تدبير البدن وأنهم كانوا يسرون متشبعين بفكر القضاء والقدر إن هلكوا قالوا قضاءً وإن عاشوا قالوا قدر. والحقيقة إن القوم كانوا على عناية أكيدة بأمور الصحة وما بقي من كتبهم القليلة المحفوظ بعضها في دور الكتب في الشرق والغرب والمطبوع بعضها يدل دلالة كبيرة على ذلك وأقرب سبل للإشراف على عناية العرب بتدبير الصحة أن يرجع القاريء إلى كشف الظنون فيرى الكتب التي ألقت في هذا الفن بل إلى تراجم الأطباء في القرون الأولى للإسلام ويقرأ في طبقات الأطباء لابن أبي أصيعة أسماء الكتب التي صنفوها في تدبير الصحة فقط.

وقد ظفرنا في خزانة كتب السيد أبي الخير عابدين من جلة فقهاء دمشق بكتاب مصالح الأبدان والأنفس لأبي زيد البلخي ولعله الجغرافي المورخ المشهور في القرن الثالث: والقطعة مقتطعة من كتاب للمؤلف تغلب عليها الصحة فأحيينا نقله للمقتبس لأن معظم ما تكلم فيه من المصالح كأنه كتب في هذه الأيام قال المؤلف:

تذكرة مقتضية على سبيل الإيجاز والاختصار من كتاب أبيزيد البلخي رحمه الله تعالى المسمى مصالح الأبدان والأنفس تجنبا فيه بسط أبي زيد وتطويله وإن كان ملذاً غير محلول ومعمول اللفظ غير مغسول إلا أنا ملنا إلى ما يدركه الحفظ وتقصير في الإحاطة به مساهمة اللحظ وبالله التوفيق والإعانة. . .

باب الحاجة إلى تعهد الأجسام وما في ذلك من استدامة الصحة